لماذا فقدنا القدرة على الحلم؟! (*)

القدرة على الحلم، دليل حياة، وخاصية مانحة.. إلى الحلم وما يشعله من خواطر وما يحركه ويبعثه فى النفس من محركات، تعود إنجازات أو طفرات أو نجاحات البشر.. يصدق هذا على الجماعات مثلما يصدق على الأفراد، لأن قدرة المجتمعات على الحلم هى محصلة قدرات أفرادها.. والحلم ذاته هو محصلة تلاقى الخيال أو المخيلة مع الإرادة والعزيمة.. والتخيل أميز ما يتميز به الإنسان عن باقى الكائنات، قد وجدوا قدراً واضحاً من العقل فى بعض الكائنات، وهناك منها ما لديه فضلا عن الحواس والغرائز العالية التى تعينه - قدراً من الفهم يعرف به صاحبه وعدوه ويميز بين الأشياء والدروب والمسالك، ولكن لا يوجد فى الكائنات من يتمتع بالمخيلة غير الإنسان.. هذه المخيلة هى التى بها يسترجع ماضيه، ويستحضر الحاضر الغائب غياباً ماديا عنه، ويستشرف المستقبل، هذه الخاصية البشرية هى مع العقل سر نبوغ وتقدم ورقى بنى البشر.. ولكنها مع ما تمنحه من قدرات وتتيحه من عراضه وعمق واتساع الرؤية، لا تحقق إنجازا ما لم تكن مجدولة مضفرة بقدرة حية متوقدة حالمة أو قادرة على الحلم، ولست عن الحلم المخدور أتحدث، وإنما أعنى الحلم الممزوج بإرادة قوية واعية، وبعزيمة متينة ماضية، بهذا الخليط من الخيال والحلم والعزم والإرادة يشق الأفراد

محاكم أمن الدولة طوارئ باقية كما هى لم يمسسها إلغاء أو تقليص!!! أما حالة الطوارئ فلا تزال منذ أعلنت ١٩٨١/١٠/٧ ـــ قائمة حتى الآن!!!

* ٢٠٠٦/٦/١٠

وتشق المجتمعات طريقها، وتنقل الأمانى المتخيلة المرغوبة من حيز الخيال والحلم إلى الواقع الحى. الواقع ثمرة تلاقى متفاعل وفاعل بين قدرة الخيال وقدرة الحلم المقرون بالإرادة والعزم!

لا يوجد واقع فردى أو جمعى أو اجتماعى لا يحتاج لتغيير أو تعديل أو تطوير أو تكريس أو إبداع، والقدرة على رصد ذلك وتخيل مطالبه وصورته المرجوّة تحتاج فضلا عن قدرة التخيل، إلى قدرة الرغبة او إرادة الحلم بما يحسن أن يكون صلاحا لأحوال الناس والمجتمع.. وهنا بالذات تكمن القدرة الحقيقية للأفراد والأمم على استشراف المستقبل وتخيل المراد فيه وامتلاك إرادة حية متطلعة لتحقيقه.

راودتنى هذه الخواطر وأنا أراجع فى الأسبوع المنصرم توهج كتابات سالفة لكبار مفكرينا ومثقفينا وكتابنا وصحفيينا فى قضايانا وأمانينا الوطنية، لم تقعدها العثرات ولا النكسات ولا النكبات أو تسحب من تماسكها وقدرتها على رسم الطريق الواعى إلى المستقبل رسما لم يقع فريسة اليأس أو الخبو أو مسلمات مسمومة تصادر الحق والأمل، وإنما انطلقت تصنع من كل الظروف غير المواتية حافزا للتحدى وتغيير الواقع لا الاستسلام أو الاستنامة له!.

طفقت أطوف مع الكتابات التى تتالت فى أعقاب نكسة ١٩٦٧، فوجدت استمساكا بالثوابت والأصول وتيقظا لمقومات الوطن العربى بأقطاره - وما يمتلكه من حقائق موجودة وفاعلة وآخرى كامنة واعدة.. لمست اهتماما بدراسة "الشخصية العربية" من منظورنا ومنظور الآخرين، ومراجعة عريضة متعمقة للنفس دون أن تفقد التماسك أو الإيمان بالذات أو تشك فى القدرة على تغيير الواقع المرّ. ملتفتة إلى أن هذه الثقة لا تنطلق من أوهام مخدورة، وإنما من استبصار حقيقى وموضوعى لواقع الإمكانيات الأصيلة، سواء الإمكانيات الكامنة التى لم يتح لها فرصة الاستخدام أو الاستخدام

فاعل، أو تلك العاملة فعلا فى تيار الصراع العالمى وما تحتاجه من
عديل أو تطوير يستطيع أن يواجه زخم ما استبان أنه يحيط بالأمة
عربية ويبغى تعقيمها وتغليق المستقبل أمامها بزراعة اليأس وإشاعة
عجزا!. لم تدع الكتابات والدراسات ملفا من الملفات المحلية أو
لإقليمية أو العالمية إلاّ غاصت فيه وفتشت باحثة منقبة، متقصية
قوى المضادة واستراتيجيتها وتكتيكاتها ومخططاتها ومؤامراتها
أساليبها ووسائلها وأدواتها وما تحمله وتبثه من مخاطر تطويق
لمنطقة وتفتيتها والسيطرة عليها.. على أن الأهم أن هذه الكتابات لم
فقد قط الثقة بالذات ولا وقعت فريسة لمصكوكات انهزامية
صدرة من الخارج أو مبثوثة من الداخل لإفقاد الإنسان العربى ثقته
نفسه وبوطنه وزعزعة المد القومى الذى احتل الصدارة فى الوجدان
لعربى على مدى قرن من الزمان منذ كتابات الكواكبى وساطع
لحصرى اللذين استطاعا أن يحركا الماء الآسن ويلهبا الشعور
لقومى الذى تتابعت أمواجه حتى صار واقعا ضخما واعداً بوحدة
عربية تتجاوز الحدود المرسومة المصطنعة لتضم العرب فى كيان
كبير قادر على صد أطماع قوى استفحلت فى عالم لم تعد فيه
رصة حقيقية لكيانات صغرى!!. لم يقف الرواد ولا وقفت القوى
لوطنية عاجزة عن الحلم لاستيجاد منفذ لكسر حصار الطوق..
وسط صراع غير متكافئ نجحت القوى الوطنية الرائية فى تشكيل
كتلة الحياد الإيجابى فتحت على أفريقيا ومدت خطوطاً من التنسيق
والتعاون مع الهند والصين ويوغسلافيا وغيرها، وأشعلت المد القومى
لعربى وساندت الحركات التحررية الوطنية، وأقامت كتلة متناغمة
متوافقة لتقف فاعلة مؤثرة بين معسكرى الكبار دون أن يتطرق
ليها اليأس أو الاستسلام لمخططات تعقيم الدول الصغرى وتركيعها!

القدرة على الحلم، ومواجهة الصعاب، كانت قديمة ملحوظة
دينا. لم يكن الواقع العربى جميلا بهيّاً "ياما هنا ياما هناك "،

حينما استخلص منه سابقونا ووسط نير الاحتلال الجاثم على معظم أقطار العرب - فرصة تبنوها وكفلوها واحتضنوها لإنشاء جامعة الدول العربية التى أخذنا نفتعل الأسباب لإضعافها والنيل منها ولا بأس لدى البعض من تقويضها. نعم لم تكن البداية جامعة عربية كاملة الأوصاف، ولكنهم على طول الرحلة حتى سلمونا الراية، اعتنقوا رغم كل المعوقات والحروب والتيارات المضادة - فكرة وأمل الوحدة العربية، فماذا فعلنا بعدهم؟!!

لقد هالنى الاستسلام الحالى لمصكوكات انهزامية صكها الآخرون وسللوها إلينا لتتسرب وتتراكم فى اللاّوعى ثم تستقر فى الوعى. لست أريد أن أنكأ الجراح أو أطفىء البقية الباقية من الكرامة الوطنية بتعداد وترديد هذه المسلّمات التى استقرت للأسف فى نخاع بعضنا.. ليكن أن الواقع ملىء بمرارات، ولكن الأخطر من مراراته أن نستنيم له وأن تتسرب إلى وجداننا مصكوكات خبيثة لتصير "مسلّمات" فى وجداننا تسحبنا لأسفل وتفقدنا القدرة على الحلم وتسحب منا العزم والإرادة، وتصادر على غدنا القريب والأخطر من هذا أنها تكاد تصادر على الغد البعيد!

لم يكن الطريق إلى الوحدة العربية ممهدا، ولا كانت الظروف فى أعقاب نكسة ١٩٦٧ بهيّة، بل كانت مرارتها كالحنظل - فسارع المفكرون والكتاب لرأب الصدع وشد وصلب البناء واستنفار العزائم حتى لا تسقط الأمة فى وهدةٍ انهزاميةٍ مستسلمة، وجَعَلَ كل من زاويته يزرع الأمل ويستنفر العزم، فطفق الأستاذ السيد ياسين يكتب - قبل أكتوبر ١٩٧٣ - عن "الشخصية العربية"، يبحث وينقب فيها من منظورنا وفى منظور الآخرين، ويبحث ويفتش فى أسباب الانتكاسة، هل هى لغياب التكنولوجيا أو تواضع خطابنا للغرب أو تعجلنا أو خطأ فى تحالفاتنا، ومَنْ حقيقةً الذى هزم: هل الأمة أم شعب أم طبقة أم قائد، ومَنْ الذى انهزم حقيقةً بالهزيمة.. وطفق

آخرون يكتبون عن الواقع الاجتماعى الثقافى العربى، وهل هو نمط أم أنماط، ويتطرق الدكتور سيد عويس أبو الاجتماعيين إلى مفاهيم "الشخصية القومية"، ويتناول الدكتور عزت حجازى" الشخصية العربية: وحدة أم تنوع "؟! ـ ويعرج الدكتور حامد عمار فى دراسته للشخصية العربية إلى معارج متعددة لم تخل من تحريك الماء الآسن وإثارة مناقشات واسعة حول دراسته عن "الشخصية الفهلوية" وأخذ يكتب عن الوحدة العربية فى مراحلها المتنوعة وآفاقها المتعددة، وعن قيمة وأهمية "الهدف الوحدوى" الذى يظل مهما انتابته من ذبذبات إطاراً جوهريا للوجود العربى والتنمية العربية والمصير المنشود!

فهل تواصلت آلياتنا السياسية مع ما سبق أن أنجزناه، أو مع رؤى وتعمقات ودراسات ومؤشرات مفكرينا ومحللينا وكتابنا، أم أخذتنا مداهمات فقطعت ما كان يجب أن يتصل، وفصلت بين الآلياتالسياسية وتراكمات الفكر الرفيع الذى أضافه ولا يزال يضيفه كبار مفكرينا؟!

لا ينبغى لنا ولا للعالم أن يستسلم لهيمنة قطب واحد على مقادير العالم، فذلك خطر وضار وغير عادل.. الاستسلام لهذا الواقع الضرير يصادر على أفكار مشروعة ومطلوبة للمساهمة فى التكريس لنظام عالمى يحقق تعددية تتجنب أحادية المراكز والأقطاب، ويكفل احترام جميع الدول والثقافات والكبير والصغير بعيدا عن الهيمنة والانفراد وإدارة شئون العالم!

لست أريد هنا، وليس فى مقدورى، أن أحدد للناس أو المجتمعات ما يجب عليهم أن يحلموا به، فأحلام المستقبل الفردية والجماعية غير محدودة، وتحديدها يصادر على ملكة الحلم والخيال بينما الواجب تخصيبها.. وهذا هو المهم. المهم ألا نستسلم استسلاما خانعا أو مستنيما لواقع مهما كان مرّاً، وألاّ نفقد القدرة على الحلم والخيال، وألاّ نكف عن السعى الدءوب لنقل الأحلام إلى

واقع حىّ.. بهذه القدرة يحيا الأفراد وتحيا الجماعات والأمم، وبدونها تنطفئ شعلة الحياة!

وبعد..

هذه كانت محض عينة من المواقف ومن دراسات وكتابات وبشارات المفكرين والكتاب إلى الناس، فأين هذا من تراجع أحلامنا وآمالنا وخطابنا العربى بعامة، وأين هذا مما سرب إلى وعينا من مسلّمات سلبية مثبطة مصكوكة من الآخرين بعناية وخبث ليشيع الاستسلام لها وتتبلد المشاعر إزاء قوارع الغزو والبلقنة والتفتيت، والتى ما إن أصابت الوطن الكبير بما أحدثته بين أقطاره من تفتيت، حتى أخذت تستأنف المخطط لبلقنة القطر الواحد.. لهفى على العراق، وقلبى واجف على السودان، وعلى ما يدبر لمصر بليلٍ من وراء الأستار؟!

السؤال الذى يحيرنى، هل تشيخ المجتمعات والأمم مثلما يشيخ الأفراد فتتناقص قدرتها على الخيال والحلم؟!

هل فقدنا القدرة على الحلم؟!